جامعه الملك سعود
كلية الآداب
مجلة الآداب
ردمد (ورقي):3620 – 1018
ردمد (النشر الالكتروني): 8339-1658

King Saud University
College of Arts
Journal of Arts
ISSN (Paper):1018-3620
ISSN (Electronic):1658-8339

مجلة *الآداب*، مج (32)، ع (1)، ص ص 49-70، جامعة الملك سعود، الرياض (2020م/1441هـ)
Journal of Arts, Vol. 32 (1), pp 49-70, © King Saud University, Riyadh (2020 /1441H.)

أنواع التناص والخطاب الميتاسردي في رواية "موت صغير" لمحمد حسن علوان

طارق بن محمد المقيم

أستاذ مساعد، قسم الدراسات الإسلامية واللغة العربية، كلية الدراسات العامة، جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، المملكة العربية السعودية

(قدم للنشر في 1441/2/1 هـ، وقبل للنشر في 1441/10/19 هـ)

ملخص البحث: يناقش هذا البحث الخطاب الميتاسردي الذي تشكل في إطار الرواية، وعلاقته بمتن الرواية "الرواية الرئيسة"، والأسباب الداعية لضرورة هذا الخطاب في تناول شخصية تراثية لها شهرتها الواسعة في الثقافة العربية والعالمية، وأثر ذلك الخطاب في بناء الرواية.
وفي كلا الخطابين كان التناص حاضرا بأشكال عدة، أحصيتها من خلال ثلاثة اتجاهات الأول: مدى تقارب هذا النص الروائي مع نصوص المؤلف السابقة، والثاني: تناص هذه الرواية مع الروايات المعاصرة التي تناولت التراث الصوفي بصورة عامة، وتراث ابن عربي بصورة خاصة، والثالث: التناص المباشر مع مؤلفات "ابن عربي" والنصوص التراثية الأخرى، ومدى نجاح مؤلف الرواية في استدعاء تلك النصوص في روايته، وتوظيفها في رؤيته الخاصة، وإبداعه الفني.
والمنهج الوصفي التحليلي هو المنهج المختار لهذا البحث، من خلال كشف ملامح الخطاب الميتاسردي، ووظائفه ومواضع التناص في القصتين، وتحليلها شكليا وفنيا.
الكلمات المفتاحية: الخطاب الميتاسردي، التناص، الرواية، موت صغير، محمد حسن علوان، ابن عربي.

metanarrative discourse and Intertextuality in the novel " Mout Sageer" by Mohammed Hassan Alwan

Hamed Saud Al-Belayhed
Assistant Professor of Literature and Criticism, College of General Studies, King Fahd University of Petroleum and Minerals, Saudi Arabia
(Received:1/2/1441H, Accepted for publication 19/10/1441H)

Abstract: This paper discusses the of metanarrative discourse, which is formed within the framework of the novel, and its relationship with the body of the novel "main novel", and the reasons for the need for this discourse in dealing with a heritage figure has a wide fame in the Arab and international culture, and The impact of this speech in the construction of the novel.
In both speeches, intertextuality was present in several forms, which I counted in three directions: First, the extent to which this narrative text converges with previous author texts, The second: the narration of this novel with contemporary novels dealing with the mystic heritage in general, and the heritage of Ibn Arabi in particular, And third: direct intertwining with the works of "Ibn Arabi" and other heritage texts, and the extent of the success of the author of the novel in recalling those texts in his novel, and used in his own vision, and his artistic creativity.
The descriptive analytical approach is the method chosen for this research, by revealing the features of the metanarrative discourse, and its functions and places of intertextuality in the two stories, and analyzed formally and technically.
Keywords: discourse, intertextuality, novel, Mout Sageer, Mohammed Hassan Alwan, Ibn Arabi.

مقدمة:

يعد "التناص" وما يتعلق بالنص من أساليب وطرق "تقنيات" كالميتاسرد وغيرها، من أبرز أدوات المبدع المعينة لتوليد قيم فكرية فنية جديدة، وحرص كثير من الباحثين على دراسة مفهوم التناص، ومعرفة أنواعه، وقضاياه، ولعل من أوائلهم جوليا كريستيفا حيث أشارت إلى أن النص "هو ترحال للنصوص، وتداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص سابقة"(كريستيفا،1997م،ص21) وسعى الباحثون من بعدها على تطوير قضايا هذا المفهوم ودراسة أنواعه، وفي هذا البحث سأتناول التناص وأنواعه في رواية "موت صغير" وارتباطه بالخطاب الميتاسردي الوارد في "إطار الرواية".

كما يناقش هذا البحث وظائف ذلك الخطاب الميتاسردي الذي عرفه جميل حمداوي بأنه: "ذلك الخطاب المتعالي الذي يصف العملية الإبداعية نظرية ونقدا، كما يعنى هذا الخطاب الوصفي برصد عوالم الكتابة الحقيقية والافتراضية والتخييلية، واستعراض طرائق الكتابة..ورصد انشغالات المؤلفين السراد، وتنبيان هواجسهم الشعورية واللاشعورية...علاوة على ذلك يسائل الخطاب الميتاسردي طرائق تكون الإبداع ونشأته، ووصف عملية الكتابة وخطواتها...وتبيان أنواع التداخل بين النص الإبداعي والنص الميتاسردي"(حمداوي،2018م،ص8) كذلك بين حمداوي أن من طرائق الخطاب الميتاسردي تضمين أو تداخل النصوص السردية، أو القصة داخل القصة(ينظر: حمداوي،2018م،ص 9).

ورواية "موت صغير" مقسمة إلى قسمين أو إلى قصتين، الحدث الأول قصة إطارية للقصة الثانية، وهذه تقنية ميتاسردية استعان بها المؤلف في كتابة روايته، واحتوت هذه القصة الإطارية -أيضا-على تقنيات ميتاسردية أخرى، سأتناولها في هذا البحث.

ويناقش هذا البحث التناص في هذه الرواية حيث إنها تداخلت مع ما سبقها من نصوص، من خلال تعلقها بنصوص ابن عربي الشخصية الرئيسة في الرواية، وكذلك من خلال تعلقها بنصوص كتبت عن ابن عربي في مجالات مختلفة كالتاريخ والفكر والأدب بصورة عامة والروايات بصورة خاصة، كما يناقش هذا البحث التناص الواقع بين "القصة الإطارية" و "القصة الأساسية".

ويهدف هذا البحث إلى التعرف على القيمة الفنية والأدبية لتلاقي النصوص وتناصها مع نص رواية "موت صغير"، والأساليب التي اتبعها المؤلف في سبك تلك النصوص في نصه.

ويجيب البحث عن أسئلة تتعلق بمعرفة المصادر التي استعان بها المؤلف في إخراج نصه، لاسيما أن النص تاريخي، وعن شخصية تراثية لها عمقها الفكري والفني، وكيف استطاع المؤلف أن يوظف تلك النصوص التاريخية وغيرها في نصه الجديد؟

أحداث الرواية:

تتكون رواية "موت صغير" من قسمين متعلقين ببعضهما البعض، القسم الأول نص متخيل يحكي عن رحلة مخطوط كتبه ابن عربي يحكي سيرته وطرق انتقال ذلك المخطوط عبر الأجيال، من خلال مريديه ومحبيه وغيرهم، من بعد وفاته حتى عصرنا الحديث، عبر عدة مدن، وظروف مختلفة، تعكس حفظ الله لهذا المخطوط أولا، ثم حرص محبي ابن عربي ثانيا على تراث إمامهم، والقسم الآخر يحتوي مضمون تلك السيرة وهو السرد التاريخي لحياة ابن عربي.

الخطاب الميتاسردي في الرواية:

كان الحدث الأول "إطارا" للحدث الثاني، أو ما يسمى بـ"القصة الإطارية" وهذه الإستراتيجية نوع من أنواع الخطاب الميتاسردي حيث إنه "سرد يتضمن سردا آخر، سرد يعمل بوصفه إطارا لسرد آخر بأن يشكل محيطا أو خلفية له" (برنس،2003، ص74)، وكما أن هذا الحدث هو إطار للحدث الثاني "الأساسي" فإنه -أيضا-يسعى ليروي "اكتشاف الحكاية الأساسية" (زيتوني،2002، ص32)، وكثيرا ما مارس الروائيون العرب وغيرهم هذه الطريقة "التقنية" في رواياتهم بصور شتى.

ومن أشكال الخطاب الميتاسردي الوارد في "القصة الإطارية" ما يتعلق بوظائف الراوي المتعددة فمثلما "لا يخلو كلام الراوي أحياناً من تعليق على كلام الشخصيات وخطاباتها يتناول مظاهر مختلفة، قد ينعكس خطابه على خطابه القصصي، فيكشف بعض ملامح انتظامه ويشير إلى مفاصله وأقسامه وعلاقاته الداخلية. وهذا ممّا يدخل ضمن وظيفة من وظائف الراوي الأساسية وهي التنسيق والتنظيم. ويكون خطابه في هذه الحالة خطاباً ميتاسرديا" (القاضي،2010، ص178)، وعلوان أراد أن تكون شخصيات أخرى متعددة عبر التاريخ وأن تتشارك مع الراوي في عملية سرد أحداث إطار الرواية، بينما يظل الراوي ابن عربي وحده في رواية أحداث "المتن الروائي" الأساسي.

وتناصت نصوص أولئك الرواة في "الرواية الإطارية" وسردهم مع نصوص تراثية وحديثة مختلفة، وبذلك تكون الرواية مجموعة من الارتباطات والتناصات المتداخلة فيما بينها، وهذه الأنواع المختلفة المكونة للرواية "تتداخل فيما بينها، وتتبادل الفعل، وتصبح تشتغل كبنيات نصية حرة: يتغير موقعها، وتنتقل من نوع إلى نوع، وتدخل في علاقة مع بنية نصية أصل، كما أنها تدخل في علاقة مع بعضها...ولهذا السبب أيضا، تصبح المتفاعلات النصية أيا كان نوعها جزءا في بناء النص وبنيته، وإنتاجيته الدلالية" (يقطين،2001، ص122).

ولم يكن هذا الخطاب الميتاسردي الذي استند إليه المؤلف تجربة جديدة بالنسبة إليه، فقد استعان به من قبل في روايته "طوق الطهارة" حيث كشف الكاتب "عن تشكل الشخصيات الروائية داخله، وخروجها إلى الفضاء السردي؛ لتمارس أدوارها المحددة لها سلفا، ثم انفصالها عنه، لأنها صارت ذواتا أخرى خارج ذاته." (صالح،2017، ص35)

إلا أن المؤلف في رواية "موت صغير" أراد أن يضيف أسلوباً ميتاسردياً جديدا لا يتعلق بمحاولته السابقة له في رواية "طوق الطهارة"، حيث استعان ببعض التقنيات الميتاسردية المشابهة للتقنيات الحاضرة في روايات عربية عدة مثل: رواية "النهر يعض ذيله"، التي اعتمد الروائي فيها على مخطوطات تحوي حكايات مختلفة " تدعَم الخاصّية الميتاسرديّة. كما يُمكن أن تُقرأ بوصفِها نصوصا وحِكاياتٍ مُنفَصلةً ومُستَقلّة، لكنّها في عُمْقِها تُشَكِّلُ، مع بعضِها، مَتْنا سَرديّا مُتَرابطا إلى حَدّ كَبير. لتبرز وظيفة الميتاسرد المتمثلة هنا في أنّ المخطوطات المُضَمّنة داخليّا ...تُضيء الرواية، وتُعمّق من دلالاتها، وتشعّب مساراتها. وهكذا فلُعبة المَخطوطة الميتاسردية أعطتْ أكلَها في تَشييد صِرح الرواية مبنى ومعنى."(ناصري،2017)، واكتفى محمد حسن علوان

في روايته أن يجعل التداخل بين البنائين السرديين واضحا ومباشرا، دون أن يكون تداخلا معقدا كما في رواية "النهر يعض على ذيله" وغيرها، بل جعل أحداث انتقال مخطوط ابن عربي عبر العصور هو الحدث الرئيس في "إطار الرواية"، دون أن يكشف ذلك المخطوط عن أسرار المتن الروائي -في الغالب- والهدف من ذلك إضافة شكل حداثي لرواية تراثية، بطريقة تبرز المتن الحكائي بصورة تقليدية، ذات أحداث متسلسلة زمنيا، يقابلها "رواية إطارية" غلب عليها الطابع الحداثي من أبرز سماته الانتقال العشوائي في تناول الأحداث عبر العصور، وتعدد الرواة، وغير ذلك من الأساليب التجديدية في سرد الأحداث.

وأشار المؤلف في بداية هذا الإطار الميتاسردي إلى طريقة إنشاء تلك السيرة المتخيلة التي كتبها ابن عربي، حيث إن تناول الأحداث المتعلقة بطريقة إنشاء النص، وكذلك المراحل التي يمر بها المبدع أثناء العملية الإبداعية من أبرز مواضيع الخطاب الميتاسردي ، حيث يعنى الروائي بالطرق العملية لكتابة الرواية فالقارئ في هذه الحالة يقرأ أحداث الرواية، ويقرأ كيف كتبت هذه الرواية، و" لن نكون أمام أحداث واقعية عاشتها الشخصيات، بل سنكون إزاء أحداث نصية، أو أحداث لغوية، يمور بها النص، والمؤلف الضمني، وهو عادة السارد الذي يأخذ على عاتقه مسؤولية رواية قصة النص، الذي يكون بين أيدينا." (حمداوي،2008، ص105)

وفي رواية "موت صغير" أشار الراوي إلى طريقة إنشاء سيرته الذاتية، بصورة مقاربة لتجارب الصوفيين الآخرين في الكتابة وطقوسها، الذين يمرون بعدة مراحل لاشعورية من الذكر والأوراد والعزلة الروحية وغيرها قبل وأثناء الكتابة، حتى يأتي إليهم الإلهام الكتابي العرفاني، من خلال الطرق و"الإستراتيجيات الكتابية" المرتبطة بعوالم اللاشعور كالكشف والرؤى والتجلي والجذب وغيرها، حيث يقول ابن عربي في الرواية الإطارية: "ولكن كل جذبة تصعقني حتى يصير قلبي حمامة في الملكوت، وكلامي فهوانياً لا تدركه الأسماع، وينخطف البصر بنور الله ولكن تسطع به البصيرة. ثم يكشف الله لي ما يأمر به عبده الفقير إليه المنقطع إلا منه. يأمرني أن أكتب كتاباً وأكشف علماً وأصحب شيخاً وأحمل مريداً وأخلو عندما أحتاج إلى الخلوة وأجلو عندما تحلّ الجلوة." (علوان،2016، ص9).

وبعد هذه الأجواء الكتابية الصوفية يتحدث الروائي في "إطار الرواية" عن كيفية انتقال المخطوط (نص الرواية)، وحرص خادم ابن عربي سودكين وابنه وأحفاده من بعده على الاهتمام بذلك المخطوط، وتعاقب الأجيال على حفظه حتى عصرنا الحديث، وأثر أفكار ابن عربي على محبيه عبر تلك الأجيال المتعاقبة، في أماكن مختلفة من العالم.

ومن طرائق الأسلوب الميتاسردي الواردة في "إطار الرواية" تنوع وتعدد الأصوات المتحدثة، بخلاف الرواية الأساسية التي غلب عليها صوت الراوي "ابن عربي"، حيث نجد في "إطار الرواية" إضافة أصوات أخرى متفرعة، في غالبيتهم "رواة غائبون" غير معروفين يقدمون المواقف والأحداث لتروى" بأقل وساطة ممكنة"(برنس،2003،ص7) تصب في الأخير داخل صلب حكاية موحدة هي حكاية ابن عربي وتلقي تراثه عبر الأجيال، ليندرج إطار رواية "موت صغير" الميتاسردي من ضمن الروايات المبنية على "حكاية واحدة يحكيها عدة أشخاص كل من وجهة نظره، تسمى رواية بوليفونية، تتعدد فيها الأصوات، وهذا يعطي المجال لأكثر من كاتب ضمني لرواية حدث ما"،(الشويلي،2017) ومن فوائد ذلك البناء الميتاسردي -أيضا- إبراز الأطروحات المختلفة "واللغات، والأساليب، والمنظورات الإيديولوجية"(حمداوي،2018،ص10)، وتجلى ذلك في إطار رواية "موت صغير" بوضوح حين عرض المؤلف عدة أفكار ومذاهب وإيديولوجيات مختلفة انبثقت من فكر ابن عربي، عبر أزمنة مختلفة، دون أن يظهر ميله لأحد منها، وإنما سعى أن يقرب فيما بينها من خلال إعطاء معتنقيها مساحة كافية للتعبير عنها، وإظهارها بصورة إيجابية ومتسامحة مع المذاهب الأخرى، مما أبرز دورها و أهميتها في إكمال وبناء الفكر الإنساني العالمي، وهذا هو الهدف من تعدد الرواة في الرواية الإطارية، من بعد أن كان صوت الراوي الأوحد "ابن عربي" طاغيا على أحداث المتن الروائي.

وكما بينت الأحداث في إطار الرواية عن مكانة ابن عربي في نفوس أتباعه، بينت إهمال وتخريب تراثه من قبل الغزاة في القديم على أيدي التتار، وغزاة العصر الحديث على أيدي المستعمرين الفرنسيين، وكذلك بينت زهد بعض المسلمين بفكره ومخطوطاته، كما في موقف الملك الناصر مع أبي الفداء-أحد أتباعه-عندما طلب منه أبو الفداء أن يعطيه كتابا لابن عربي رآه في ديوانه، فقاطعه بعصبية، وهو يقول:

ـ هل هذا وقته يا أبو الفداء! خذه... خذ ما شئت..."(علوان،2016، ص245).

وقد سبقت بعض أحداث "إطار الرواية" زمنيا أحداث القصة الرئيسة "متن الرواية"، مما قد يشتت القارئ في بعض الأحيان، كما في حديث سودكين خادم ابن عربي عن مكانة سيده، وحسرته عليه بعد وفاته، بعد الحديث عن طفولة ابن عربي في متن الرواية، وفي ذلك إشارة لما سيؤول إليه ابن عربي من مكانة عظيمة، وربما أراد المؤلف بذلك أن يستبق أحداث "متن الرواية" ليثير تساؤلات القارئ، ولتشوقه لمعرفة السبل التي أفضت بذلك الطفل الصغير"ابن عربي" ليتبوأ مكانة عظيمة في مستقبل حياته، فالزمن استبق ومن ثم استرجع في ثنايا قسمي الرواية.

وقد يتناص متن الرواية بإطار الرواية من خلال ربط بعض الأحداث والمواقف ببعضها، فمتن الرواية-مثلا-أشار في نهاية الرواية إلى موقف سودكين مع ابنه حيث إن ابن عربي دعا لابن سودكين "أن يكون مثل مكة، يجبى إليها من ثمرات كل شيء"(علوان،2016، ص562). ولم يدع له بأن يكون صوفيا، أو عالما وهذا التوضيح من المؤلف قد يكون من أجل ربط المتن بالإطار وإقامة جسور تناصية بينهما، وربط آخر الرواية بأولها حين أراد سودكين خادم ابن عربي بأن يكون ولده صوفيا في بداية أحداث"إطار الرواية". (علوان،2016، ص53).

وفي كلا القصتين الواردتين إطار الرواية الخارجي (قصة المخطوط الذي كتبه ابن عربي ليدون سيرته وانتقاله عبر الأجيال) ومتن الرواية (القصة الرئيسة وهي سيرة ابن عربي) نجد التناص حاضرا مع النصوص الخارجية الأخرى في تشكيل جماليات الرواية، ودافعا لسيرورة الأحداث ومفسرة لتصرفات بطل الرواية، وكاشفة لمشاعره وأحاسيسه الداخلية، ومبينة لموقفه من الحياة الدنيوية والأخروية.

وفكرة هذا الخطاب الميتاسردي الذي كتبت به إطار الرواية قد تكون مستوحاة من مقدمة كتاب كلود عداس "ابن عربي..سيرته وفكره" التي أثنت فيها على حملة تراث ابن عربي عبر العصور، حيث صرحت بذلك في قولها: "فإنني أدين للسلسلة الحية من مريدي ابن عربي

بما حققته من نجاح في هذا العمل. لقد ضمنوا خلال ثمانية قرون، مشهورين كانوا أو مجهولين، نقل الإرث الأكبري والمحافظة عليه. أتمنى ألا أكون غير جديرة بتدوين اسمي بدوري في سلسلتهم" (عداس،2014،ص20)، وهذا ما يجعل الخطاب الميتاسردي يتناص مع متن الرواية من خلال اعتبار أن نص ابن عربي، غير منفصل عن أتباعه الذين نقلوا تراثه، وأسهموا في تأويله عبر العصور، ونشر أفكاره بين الناس، لاسيما أن إطار الرواية احتوى إشارات وتصريحات تكشف عن قيم وأفكار ابن عربي لم تذكر في المتن الروائي، ولعل من أبرزها موقف العالمة المسيحية في نهاية القصة الإطارية التي أوضحت أثر ابن عربي في التقريب بين الديانتين المسيحية والإسلامية، وكان ذلك سببا في اعتناقها للإسلام(علوان،2016،ص574).

وهذا الخطاب الميتاسردي جاء رغبة-أيضا-في تجديد الشكل الروائي لاسيما حين تكون الرواية تراثية متقيدة في كثير من الأحيان بحقائق التاريخ، ولتلائم روح العصر الحديث المتأثر بالسرعة والعزوف عن المألوف، والرغبة بالتغيير حتى إن المؤلف حرص أن تكون روايته مقسمة لأسفار عدة يندرج تحتها أجزاء متعددة بلغت مئة جزء لا يتجاوز الجزء الواحد عشر صفحات، وهذا الانتقال السريع بين أجزاء المشاهد الروائية ملائم لعصر السرعة وما أحدثته مواقع التواصل الاجتماعي والثورة الرقمية من تغييرات في ذائقة المتلقي، كما أن وجود خطاب ميتاسردي يفصل بين مسارات الحدث الروائي الرئيس يعطي نوعا من التشويق للقارئ في معرفة بقية الأحداث ومصير بطل الرواية، وكذلك معرفة الحلول لعقد الرواية المتعددة.

أنواع التناص في الرواية

قسم سعيد يقطين(2002،ص123) وغيره من الباحثين التفاعلات النصية إلى ثلاثة أنواع، الأول:ما يتعلق بحضور نصوص الكاتب السابقة، وما تتضمنه من أساليب وأفكار في نصه الحالي ويسمى بـ"التناص الذاتي"، أما النوع الثاني: فيتعلق بمعرفة أوجه التأثر بالروايات والكتب الفكرية المعاصرة لحياة الكاتب والمسمى بـ"التناص الداخلي"، والثالث: مدى تأثر الكاتب بالنصوص التاريخية المكتوبة بقلم الشخصية الرئيسة نفسها، أو ما كتبه الآخرون عنها في القديم والمسمى بـ"التناص الخارجي"، ومن خلال النتائج المعطاة يتبين حجم مساحة الإبداع في الرواية المدروسة، وكشف طرق التفرد التي ميزت هذا النص عن غيره من النصوص، ومدى أهمية النصوص السابقة في تيسير تلقي عمل الكاتب ونجاحه.

وقد توسع الباحثون في إثبات وجود التشابه في النصوص المتناصة مع النص الأصلي حتى لو كانت "اقتباس خفي أو ظاهر للفظ أو جملة من الألفاظ، في سياق ما " (مرتاض،2010م،ص199)، بينما الهدف من تلك الملاحظات ليس كشف مصادر الأساليب وأوجه التشابه فحسب، بل الهدف من ذلك البحث عن دلالات ذلك الالتقاء، وتفسير انتقاء بعض النصوص دون غيرها، لاسيما أن القارئ حين يقرأ عن شخصية لها بعد حضاري كبير، تستحضر أمامه عدة نصوص تتفاعل مع نص الرواية الحاضرة، ولذا لا يستطيع الروائي تجاهل تلك النصوص الحاضرة في ذهن القارئ وعقله الجمعي، دون أن يتفاعل معها في نصه.

أولا: التناص الذاتي:

لعل الأسلوب الشاعري الذي كتب به المؤلف رواياته السابقة، والذي استمر حضوره في روايته الأخيرة "موت صغير" أبرز سمة قارة في كتابات الروائي، ومن خلال هذا الأسلوب يتضح توجه المؤلف ورسالته الأدبية، الساعية لكشف ما يحيط بالنفس البشرية من أحاسيس ومشاعر دفينة، لا تظهر إلا من خلال امتزاج اللغة الشاعرية بالسرد الروائي، وما يقدمه ذلك الامتزاج من دلالات ورؤى شاملة للنفس البشرية ومحيطها الخارجي، ومن مجموع تلك الشخصيات يظهر لنا وجه المجتمع الحقيقي بصورة شاملة وعميقة، وكشف البنى الاجتماعية والنفسية من الأهداف السامية لفن الرواية.

وهذه الأسلوبية الشعرية امتزجت عند محمد حسن علوان بالتحليل النفسي والاجتماعي الدقيق لمشاعر شخصياته، سواء كانت شخصيات متخيلة من إنشاء المؤلف كرواة المخطوط، أو بعض الشخصيات داخل حكاية ابن عربي، كما نرى ذلك في تحليل شخصية ابن عربي منذ طفولته وحتى وفاته، واستطاع الروائي-أيضا- أن يحلل ما يدور في المجتمع الواحد، من خلال التعبير بلسان أحد أفرادها، كتحليل مجتمع العلماء من خلال الوقوف على علاقة ابن عربي مع غيره من العلماء كابن رشد، وإظهار ما أحاط تلك العلاقة من حسد وبغضاء من قبل علماء آخرين والوشاية ضدهما، من خلال أسلوب تخيلي لاستبطان النفس البشرية والتعبير عنها.

وتسعى الشعرية الأسلوبية في مجملها إلى كشف المشاعر الداخلية والصراعات، بكافة أشكالها وأجناسها، فهي تكشف الأمور المشتركة بين البشر، مهما اختلفت أحوالهم الاجتماعية والوظيفية والحياتية وغيرها من ظروف الحياة، وقد صور الكاتب ما تعانيه النفس البشرية من فراغ داخلي في رواياته الأربع الأولى، وكذلك في روايته الأخيرة "موت صغير" حيث سرد حياة ابن عربي، من ولادته حتى وفاته، وبين أثر انعكاس الأحداث الخارجية على حياته الداخلية، وكيف استطاع التكيف معها، وفق مراحل زمنية متفرقة، ومن خلال آليات عدة استطاع الروائي أن يوفق بين تلك الصراعات الداخلية والمبادئ الصوفية التي كان يدعو إليها ابن عربي، ولذا حرص الكاتب أن يكتب تحت عناوين أجزاء الرواية عبارات كتبها ابن عربي نفسه ليصور طريقة تفاعل الصوفي العالم مع ما يكتبه ويدعو إليه، وكثيرا ما حرص الصوفيون على أن يخلصوا أنفسهم من التناقضات والصراعات النفسية باستخدام أساليب قد تكون قاسية ومستغربة من جمهور الناس كالانقطاع التام عن الناس في الجبال وغيرها، وحرمان النفس من كثير من المباحات كالطعام والشراب والمخالطة، والروائي حرص على أن يدون عبارات ابن عربي في بدايات فصول الرواية ليثبت انتصار ابن عربي لشعاراته وكتاباته، وتطبيقها على أرض الواقع، وليست ادعاءات يكتبها بعض من يدعي المثالية كالمنافقين والمنظرين الذين يناقضون تنظيرهم.

وهذا الأسلوب الشاعري الذي ربط روايات علوان ببعضها، كان يعبر عنه الراوي "بطل القصة" بضمير المتكلم راوي الأحداث في روايات علوان الأربعة السابقة، وكذلك في هذه الرواية حيث تحدث ابن عربي بضمير المتكلم راويا سيرة حياته، ومعبرا عنها، وهو الضمير الأنسب في كشف المنابع النفسية لأبطال الرواية، فمن خلال هذا الضمير الذي يسهل على الشخصية النطق بكامل عفويتها والتعبير عن أسرار

حياتها وعواطفها، ومواقفها الحياتية في مجتمعها ومحيطها الخارجي.

وهذه اللغة الشاعرية لم تكن مستغربة في رواية تتحدث عن شخص ينتمي إلى الصوفية، الغالب على أسلوب أتباعها الطابع الشاعري، ولذا نجد أن أغلب المتصوفة شعراء، والصوفيون "يجانسون الشعراء عموما من حيث استثمارهم لحمولات الألفاظ رمزيا ودلاليا إلا أنهم يذهبون في صرف معانيها أبعد عنهم لأنهم يعلقونها بالأذواق لا الأشخاص"(خوالدية،2014م، ص39)، ولا يعني أن لغة الرواية بكاملها لغة شاعرية، بل كان للغة الوصفية والسردية الحوارية اللذين لم يمتزجا بالشاعرية حضور ومشاركة في لغة العمل الروائي، ومن ذلك وصف قرطبة (علوان،2016،ص118)، واللغة الحوارية الواردة بين ابن عربي والقطان(علوان،2016،ص18)، لا سيما أن الروائي أراد تتبع حياة شخصية عاصرت أحداثا مختلفة، وتنقلت في بلدان عدة، وقابلت وحاورت كثيرا من الشخصيات، فكان التنوع في لغة الرواية يأتي تبعا لمجريات الأحداث وما تقتضيه من مقامات لغوية.

واستطاع المؤلف أن يوظف اللغة الصوفية مع اللغة الشاعرية توظيفا جيدا في روايته، فهي ليست لغة" مُغرقة في الرّمز والإيماء كما عند المتصوّفة، بل هي لغة متداولة لدى الكتّاب، متّفق على معانيها ودلالاتها من قبل العامّة، فلا تتطلّب قارئا خاصّا يمتلك مفاتيح الفهم والتأويل الصُّوفي"(عبد الواحد،2015، ص294)، بخلاف ما كتب من روايات عربية أخرى، غلب عليها الأسلوب الصوفي من خلال اللغة والمصطلحات الخاصة بها، مما سببت لدى القارئ العادي عزوفا عنها كما في رواية جبل قاف-مثلا-.

وهذه اللغة الشاعرية وما تحمله من مشاعر وصراعات نفسية لدى أبطال روايات المؤلف تكشف في مجملها عن مفارقات وتضادات قريبة-أيضا-من أجواء اللغة الشعرية إذ إن هذه المفارقات "والثنائيات المتضادة تنهض بتحقيق قدر عال من الشعرية لما تتضمنه من دهشة ومفاجأة وتناقض يصدم خبرة المتلقي، ويدفعه إلى تأمل الدلالة المقصودة من تجاوز المتناقضات"(بوزيدي،2017، ص146) ومن ذلك حيرة ابن عربي وصراعه بعد رحيل زوجته مريم، ووفاتها بعد ذلك، ووقوعه في حب نظام إذ يقول: "شعرت أن في قلبي أشياء يحتضر وطفلاً يولد. سكراتٌ وصرخات. لحدٌ ومهد. شمسٌ تشرق وأخرى تغرب. مريمُ تستردّ حبها وترحل بعيداً ونظام تخاتل مشاعري دون أن تقدم. وبين المرأتين من أنا؟ أين شيوخي ودروسي وبقية أوتادي؟ ...صوفيٌّ أنا أم عاشق؟ أم كلاهما معاً؟ عالمٌ أم عارف؟ شيخٌ أم مريد؟ وليٌّ أم شقيّ؟ يا ربّ لا أقطع طوافي هذا حتى أرسو على بر". (علوان،2016، ص316).

وعلوان في رواياته بشكل عام، و"موت صغير" بشكل خاص يعطي مساحة كبيرة للراوي، ويجعله يعلم ما تعلمه الشخصية، من خلال نطق الشخصية بمشاعرها وأحاسيسها، فيعلم "الراوي ما تعلمه الشخصية، فهو يتماهى مع أبطال شخصياته لغة وبوحا وحركة وتفصيلا...إنه يسر بكل مكنونات الحكاية باستخدام (ضمير المتكلم) على لسان بطل الحكاية، يضع القارئ عند العتبة الأولى لها مفرغا ما في جعبته". (الزهراني،2008، ص217).

والراوي في "موت صغير" هو ابن عربي في المتن الروائي الأساس، وحين يتحدث عن نفسه "بطل الرواية" يضع فاصلا زمنيا بين كتابة الأحداث ووقوعها، وذلك يسهل على الراوي بأن يحكم على شخصية البطل وغيرها من الشخصيات ويحلل ما بداخلها قبل وأثناء مرور الأحداث، فالراوي مطلع على الأحداث بكاملها، يستطيع أن يتحكم بمجريات الأمور وترتيبها لتكون مناسبة للقارئ، وتلك الفترة الزمنية كفيلة باستخراج الطاقات الشاعرية الدفينة التي مرت ببطل القصة، وما استشفته كذلك من مشاعر الآخرين حولها، ولذا استطاع المؤلف أن يصبغ رواياته باللغة الشعرية من خلال استعانته بضمير المتكلم على لسان رواته، وكذلك من خلال اتساع المسافة الزمنية بين الأحداث وزمن رواياتها، وأتاح ذلك مساحة كبيرة للتعبير عن مشاعر إنسانية مختلفة.

ومن المواضيع التي تكررت عند المؤلف في رواياته السابقة وفي الرواية المدروسة "ظاهرة الملل" وارتباطها بتكرار فشل الحب والزواج والصداقات عند أبطال رواياته، وغير ذلك من أمور الحياة كالعمل والمسكن، ومن ذلك ما نراه في رواية "صوفيا"-مثلا- حيث تبرز معاناة شخصيات الرواية تجاه حياة الرتابة، والرغبة الملحة في تكوين علاقات شخصية جديدة، بسبب عدم القدرة على البقاء ضمن صداقات محددة، وينطبق هذا الأمر على كافة أمور الحياة، ومن ذلك تصريح بطل القصة بقولها: "أي شيء يمثل أمامي سأقبل به حتما، جميلا كان أم قبيحا، شرط ألا يظل على حالته نفسها أطول من الوقت اللازم، ويصبح مملا"(علوان،2006،ص23)، ونجد ذلك يتكرر في موقف ابن عربي مع مريم بنت عبدون، حيث يفشل ذلك الحب ويتم الانفصال بصورة قريبة من الروايات السابقة، حيث يظهر التجاهل لذلك الافتراق والاستسلام له وعدم التحسر عليه، ولا يفسر إلا بسبب الملل من تلك العلاقة، وهذه الظواهر الأسلوبية المكررة عند الكاتب قد وجدت عند آخرين وهي "ذات بعد دلالي له تأثيره على بنية النص الكلية، حيث أسهمت في تجسيد رؤية الروائي لمضمون رواياته التي شكلها من عشرات الحكايات المتداخلة والمتكررة أحيانًا، ما يعني أن الروائي كان يملك تصورًا معماريًا مسبقًا، لكل رواياته السابقة ...ما يدفعنا إلى اعتبار رواياته متسلسلة يصعب الفصل بينها على مستوى المعمار الأسلوبي".(أمل أحمد،2005،ص245) وقد يكون للجانب النفسي دور في ذلك سواء كانت من سمات شخصية الروائي نفسه، أو من خلال الذات الكاتبة التي تظهر عند كتابة النصوص، حيث تظل هذه المواضيع ساكنة في لاوعي الذات، وتظهر وتحاصر الكاتب عندما يريد الكتابة، فلا يقدر إلا أن يكتب عنها مباشرة أو يشير إليها من بعيد، وقد يكون سبب تكرار ذلك الموضوع نتيجة لما يعانيه الإنسان المعاصر بصورة عامة من هذه الظاهرة، وأراد المؤلف وصفها وتشريحها دون أن يكون هو أو ذاته الكتابية متأثرين بها .

ومن تبعات تلك الظاهرة الرغبة في تغيير الأمكنة والانتقال من مكان إلى آخر، حيث اتسم أبطال روايات المؤلف بحبهم لتغيير الأمكنة، والسفر إلى أماكن جديدة بشكل مستمر والملل من البقاء في مكان ثابت أو مدينة واحدة، وربما تصبح بعض مقاطع الرواية أشبه بأدب الرحلات من كثرة الوصف لتلك المدن وتعلق الشخصية بها فترة من الزمن، وما يرافق ذلك من مشاعر تنعكس على علاقاته بالآخرين، وتغير في نظرته إلى الحياة بشكل عام، كما نرى ذلك في انتقالات ابن عربي وحبه الدائم للسفر حيث صرح الروائي على لسان ابن عربي قوله: "من يولد في مدينة محاصرة تولد معه رغبة جامحة في الانطلاق خارج

الأسوار"(علوان،2016،ص25)، ويقول في موضع آخر على لسان بطلة رواية "صوفيا": "كل شهر كنت أنام في مكان جديد، وإلا ارتادني القلق"(علوان،2006،ص24).

كذلك كان لدور المرأة الإيجابي وأهميتها في إكمال شخصية الرجل، أمر تناص مع روايات المؤلف كلها، ومنها نص "موت صغير" الذي كان لموضوع المرأة والحب حضور في كل مراحل الرواية، رغم أن بعض الباحثين في سيرة ابن عربي ككلود عداس أثبت انقطاع ابن عربي عن النساء ثمانية عشر عاما، وهذا الظهور البارز لدور المرأة في حياة ابن عربي جاء من خلال تصور الروائي ومخيلته الفنية، لحرصه على تبيان مكانة المرأة ودورها الكبير في حياة الإنسان والمجتمع، في كل رواياته، حتى إنه ليضطر إلى تغيير بعض الحقائق التاريخية كما في هذه الرواية، وهو أمر جائز من الناحية الفنية حيث أنه" يقيم من شذرات الخطاب الماضي عالما جديدا إن تكن له بالعالم الماضي مشابه فإنه يقدم نفسه على أنه بديل عنه لا صورة منه، وبهذا فإن علاقة الرواية بالتاريخ ليست علاقة تبعية: إنها لا تأتمر بأمره ولا تخفض له جناح الذل، بل تخرجه من محبسه لتزج به في إحداثيات جديدة" (القاضي،2008م، ص182).

ومن مظاهر اهتمام ابن عربي بالمرأة في هذه الرواية جعلها وتدا من الأوتاد الأربعة، الذين سعى ابن عربي للبحث عنهم في روايته، والوتد حسب رؤية الروائي "أربعة يحفظون الأرض من السوء"(علوان،2016،ص42)، وإن كان مفهوم الأوتاد عند الصوفيين "هم الرجال الأربعة، الذين على منازل الجهات الأربع بهم يحفظ الله -تعالى- تلك الجهات، لكونهم محل نظره-تعالى-"(الحفني،2006،ص1324) فنجد أن تحديد الأوتاد بالرجال ورد عند كثير من مراجع الصوفية في القديم والحديث كما في "معجم مصطلحات الصوفية" لعبدالرزاق الكاشاني(ت730) (الكاشاني،1992،ص58) حيث لم يتم إطلاق مصطلح "الأوتاد" بل جعل محصورا في طائفة الرجال، إلا أن الروائي جعله مطلقا، ليتسنى له اختيار نظام ابنة الشيخ زاهر الأصفهاني لتكون الوتد الثالث الذي يكمل ويثبت قلب المريد، وجعلها في مكانة روحية عالية، لم يعتد أن تكون بهذه الصورة من قبل في التراث الصوفي، ليعلي من مكانة المرأة وليرفع من شأنها، وتكون مساوية للرجل في الحضور المقدس والتعظيم الروحاني لها، وجاء هذا الاهتمام بدور المرأة مطابقا لما كانت عليه رواياته السابقة، حيث عدت المرأة شخصية رئيسة ذات قيمة عالية ترفض التهميش في كل تلك الروايات.

ثانيا: التناص الداخلي:

تأثرت الروايات العربية المعاصرة بمراجع ومنطلقات مختلفة تنطلق منها الرواية، وتوجه دلالتها وأبعادها بعد ذلك، فبعض هذه الروايات نظرت إلى الذات مرجعا كما في رواية غازي القصيبي "شقة الحرية"، فكثيرا ما دار في الرواية يرجع إلى حياة المؤلف "غازي القصيبي"(عبد الرؤوف ،2014م ،ص137) بينما تطرقت بعض الروايات التاريخية كما في روايات جرجي زيدان إلى جعل التاريخ نفسه مرجعا أحاديا، يهدف من خلاله الروائي إلى فهم التاريخ وأشخاصه ومجتمعاته، دون ربط أحداثه بأحداث الواقع المعاصر، بينما ذهبت بعض الروايات التاريخية كروايات جمال الغيطاني إلى جعل أحداث التاريخ منطلقا لفهم الواقع وربط تلك الحقبة التاريخية مع "المرحلة التي عايشها الروائي في عهد الرئيس (جمال عبدالناصر)"، (الجابري،2011،ص125) بينما في رواية "موت صغير" فلا نجد هناك محاولة لربط الأحداث التاريخية بالواقع قدر ما نرى من محاولة لفهم الطبيعة البشرية بشكل عام، من خلال فهم طبيعة شخصية صوفية لها تأثيرها في الحضارة الإنسانية، إضافة إلى أن الروائي أراد من خلال إعادة سرد سيرة ابن عربي، إضفاء جوانب تخيلية تكشف أبعاد النفس البشرية، وترسم نص جمالي، يتخلله وصف سردي لمشاهد ورحلات متعددة، مشدود بحبكة تأسر القارئ دون أن تكون المكاسب النفسية والتاريخية والفكرية وحدها هي الهدف المنشود في هذه الرواية، فقد كانت الغاية الجمالية والفنية من الغايات التي سعى إليها المؤلف، من خلال استعانة المؤلف بأساليب الميتاسرد والتناص، وتجاوز كثير من الأحداث التاريخية و القضايا الفكرية المتعلقة بفكر ابن عربي

وجاءت رواية "موت صغير" مسبوقة بعدة روايات عربية صوفية في العصر الحديث، ومسبوقة-أيضا- بروايات تناولت شخصية ابن عربي وعرضت سيرة حياته ومنها رواية "جبل قاف"(بنعرفة،2002،)، كذلك كتبت عدة كتب عن سيرة ابن عربي في القديم والحديث، وقد استعان محمد حسن علوان بأفكار وأساليب تلك الكتب والروايات، مضيفا عليها شخصيته وخيالاته الفنية، ولغته الشاعرية، وقدرته على استبطان الشخصيات الواردة في روايته، ولعل هذا من أبرز ما ميز رواية "موت صغير" عما كتب سابقا فيما يتعلق بشخصية ابن عربي.

ونصوص ابن عربي نفسها من النصوص الملهمة في الأدب الحديث وتعد من النصوص الفنية أو الأدبية القليلة "التي تتحول مع الزمن من نص يخضع لقوانين نوع أدبي محدد إلى نص ثقافي شامل تتولد عنه نصوص في مختلف الأنواع الأدبية والفنية وفي مختلف العصور والأمكنة. ولعل واحدا من بين هذه النصوص القليلة هو بلا مراء نص ألف ليلة وليلة"(يقطين،1992، ص34)، وكذلك نصوص الصوفيين، وابن عربي خاصة، فقد كانت نصوصا ملهمة لكتاب آخرين، ورغم تناص رواية "موت صغير" بنصوص ابن عربي مباشرة، إلا أنها تناصت وتأثرت بالنصوص الأدبية المستلهمة لنصوص ابن عربي، فالتأثر لم يكن بنصوص ابن عربي مباشرة، فقد كانت هناك مراجع وسيطة للروائي في رسم الصور العامة لحياة ابن عربي.

وإن كان التناص الصوفي في كثير من تلك الروايات العربية جاء بأسلوب ليس "دينيا، إنما كان سيرياليا...وضربا من الهوس اللغوي"(لحباري،2009،ص192)، إلا أن هناك محاولات جادة، أسهمت في تغيير طرق التناص الصوفي، ومن أبرز تلك الروايات رواية الأسفار الثلاثة لجمال الغيطاني الذي يعد من أوائل من أعاد نصوص ابن عربي ووظفها في النص الأدبي الحديث"الذي تتجلى بصماته-أي ابن عربي- في النصّ بشكل بارز فتفيض لغتُه ونصوصُه في الرواية بل تكاد تكتسح أجزاءها، ممّا ينبئ بحضوره الوجداني في مخيّلة الروائي ومدى منحه مساحة كبيرة لآلية التناص معه" (مستار،2012،ص178) وهو ما يؤكده الغيطاني نفسه فيقول:"في نهاية السبعينات كنت أقترب من (الفتوحات المكيّة) للشيخ ابن عربي...وبدأت محاولاً النفاذ إلى جوهر هذه اللغة الصوفية المرتبطة تماماً بتجربة روحية عميقة ... وقد أدت هذه الحالة إلى روايتي "كتاب

التجليات" الذي أعتبره محطة هامة في تجربتي" (مستار، 2012، ص178).

وأسهم الغيطاني وغيره من الروائيين في تغيير لغة الكتابة الأدبية ذات الطابع الصوفي، وتغيير طريقة توظيف النصوص الصوفية في لغة الأدب والرواية بشكل عام، من خلال استدعاء نصوص صوفية مناسبة لعصر المتلقي الحديث، وموضوع الرواية، حيث إن التراث الصوفي قد حوى كثيرا من المصطلحات الغامضة، التي لا تفهم إلا من قبل الخاصة من الصوفيين، وربما لصوفية عصر من العصور دون غيره، وحرص أولئك الروائيون -أيضا- على أن تكون النصوص المختارة ذات بعد إنساني عام، تحمل دلالات عامة غير مقتصرة على الطائفة الصوفية دون أخرى، أو عصر دون غيره، كذلك انتقى الغيطاني وغيره من الكتاب المجددين من ذلك التراث أساليب وتقنيات فنية ونماذج شخصية، غلب عليها الطابع العجائبي والروحاني الفلسفي، الذي يتقاطع مع الموروث الإنساني العام.

بينما أبقت بعض الروايات الأخرى النصوص الصوفية حبيسة الدلالة الصوفية البحتة، ومن ذلك رواية "جبل قاف" إذ أن الروائي حريص على نقل الجانب المعرفي والفكري لابن عربي، والإعجاب بما قدمه من تراث صوفي كبير، دون التطرق إلى الجانب الإنساني والملامح الخاصة الشخصية الخاصة، حيث غلب على السرد الطابع العرفاني الصوفي(هميسي،2018،ص160)، و"يبدو للباحث أن بنعرفة كان يكتب لقارئ مطلع أو قارئ عليم، أو لنقل أنه يكتب لقارئ مثالي..لن يتمكن أبدا من إدراك المعنى الكامن في النص كاملا"(شيهو،2012،ص56) "فالرواية على مستوى البنية هي من أكثر النصوص الروائية غموضا وتعقيدا، فرموزها لم تتصف بالثبات بل هي في حالة تغير وتطور"(شيهو،2012،ص108) فلغة الرواية مبنية وفق لغة منغلقة لا تؤول إلا من خلال أتباع ذلك المنهج العرفاني ومريديه، مما ضيق من محدودية تلقي سيرة ابن عربي لعامة المتلقين، وقد تنبه علوان إلى ضيق مساحة التلقي في ذلك العمل الروائي، وجعل من "موت صغير" سيرة ذاتية لابن عربي ذات طابع إنساني يتلقاها جميع البشر بكافة توجهاتهم وعقائدهم، وقد تم ذلك بالفعل حينما ترجمت الرواية إلى عدة لغات، بسبب ما امتازت به من طابع إنساني عام، واحتوائها لأفكار ونصوص تدعو للتسامح مع الديانات والثقافات الأخرى.

كذلك تأثرت رواية "موت صغير" بالكتب الفكرية والمفسرة للتراث الصوفي، ومن أبرز تلك الكتب كتاب" ابن عربي.. سيرته وفكره" لكلود عداس، "إذ يمكن القول إن الجدول الزمني لحياة ابن عربي، أو الخط البياني لترحالاته هو ذاته في الكتاب والرواية (موت صغير). مع اختلاف في ترتيب الأحداث وتواليها من حيث التقديم والتأخير والتضخيم والتصغير"(فايع،2017)، ولا يظهر التأثر من خلال ترتيب أحداث الرواية فحسب، بل نجد التأثر يظهر بالتمهيد الذي أوردته المؤلفة للإشادة بجهود المريدين في نقل تراث ابن عربي والحفاظ عليه، ومن خلال ذلك جاءت فكرة الرواية الإطارية "الميتاسردية"، كذلك أبرزت كلود عداس وغيرها من المؤلفين كآسين بلاثيوس وحامد أبو زيد أثر ابن عربي في التقريب بين المذاهب والأديان فيقول آسين بلاثيوس: "حقيقة الأمر أن ابن عربي، يرى أن الإسلام لم يأت للقضاء على الديانتين المنزلتين السابقتين، بل ليكملهما؛ ولهذا فإن المبادئ الأخلاقية والروحية في هاتين الديانتين الأخيرتين لا تتناقض مع المبادئ الأخلاقية والروحية في الإسلام" (بلاثيوس،1965م،ص266)، ويقول في موضع آخر:" ولهذا فإن المسيحي أو اليهودي الذي يعتنق الإسلام لا يغير حقا من دينه" (بلاثيوس،1965م،ص267)، وهذه الأفكار جعلت الروائي يبدع شخصيات من وحي الخيال من أجل إثبات تسامح ابن عربي مع الديانات الأخرى، كشخصية فريدريك المسيحي، وكذلك الباحثة المسيحية التي اشترت مخطوط ابن عربي، ويستدعي شخصيات أخرى حقيقية لكنها لم تعاصر ابن عربي كشانكارا الفيلسوف الهندي المولود بعد وفاة ابن عربي.

كذلك نقل المؤلف عدة مواقف وحوارات تكررت في تلك الكتب الفكرية والتاريخية الوسيطة عن ابن عربي إلا أنه لا يكتفي بنقل نص القصة بأكملها، بل نراه يضيف عليها حوارات واستطرادات تناسب الشخصيات المتحاورة، كقصة مرضه وشفائه بسورة يس(علوان،2016، ص80)، وقصة الشونيز مع عمه(علوان،2016،ص85) وغيرهما.

إلا أن ابن عربي تجاوز عدة شخصيات مهمة كان لها أثر كبير في حياته سواء كانت شخصيات واقعية مثل عبدالله المروري تلميذ أبي مدين والصديق الحميم لابن عربي(عداس،2014م،ص173)، وكذلك شخصيات غيبية كررها ابن عربي في كتبه ونقلتها الكتب الوسيطة من بعده كالخضر، وكذلك بعض المواضيع والمعتقدات الصوفية المهمة في تراثهم كالخرقة، إلا أن محمد علوان لم يرد أن يستطرد في سرد المعتقدات الخاصة بالصوفية ويدخل في تفاصيل وجزئيات غير مفهومة للقارئ العادي، واكتفى بموضوع البحث عن الأوتاد الأربعة التي تثبت قلب المريد، بصورة تتلاقى مع طرق البحث عن الذات أو ما يسمى "الأسطورة الشخصية" التي سأذكرها لاحقا.

كذلك ابتكر الروائي موضوع البحث عن الأوتاد الأربعة لتكون عقدة تدور عليها أحداث الرواية دون أن يكون لها أساس في تراث ابن عربي، إذ وردت في كتب صوفيين آخرين، دون أن ترد إشارة إلى أولئك الأوتاد الأربعة في تراث ابن عربي نفسه.

كذلك تأثر المؤلف برواية شوق الدرويش التي استعان فيها مؤلفها بنصوص الصوفية بصورة عامة، وبنصوص ابن عربي بصورة خاصة(زيادة،2104م،ص460)، وجعلها حاضرة في سير الأحداث وتعاقبها، ومتداخلة مع طرق التعبير التي يتفنن بها الشخصيات الصوفية، ومن ذلك حين ابتدأ روايته بعبارة رسالة "ما لا يعول عليه "لابن عربي" كل شوق يسكن باللقاء، لا يعول عليه"(زيادة،2104م،ص7) ونجد التأثر -أيضا- من خلال استدعاء نصوص روحانية من ديانات أخرى كالمسيحية وغيرها كاستشهاد مؤلف رواية "شوق الدرويش" في ختام أحد المشاهد الروائية بمقولة من رسائل يعقوب عليه السلام "طوبى للرجل الذي يحتمل التجربة، لأنه إذا تزكى ينال إكليل الحياة الذي وعد به الرب للذين يحبونه"(زيادة،2104م،418).

وكذلك استدعت الروايات العربية الكثير من العبارات الصوفية والفلاسفة المسلمين، من خلال تضمينها داخل المتن الروائي أو جعلها في مقدمة الرواية، وجعلها في أحيان أخرى عنوانا تمهيديا لأجزاء الرواية لاسيما حين تكون العبارات المقتبسة ذات أسلوب شاعري، ومعنى عميق، كما في رواية "سرادق الحلم والفجيعة" لعز الدين جلاوجي الذي بدأها الكاتب

بإهداء "إلى...الغرباء" واتبعها بفاتحة احتوت نصا لأبي حيان التوحيدي يقول فيها: "الهوى مركبي..والهدى مطلبي...ولا أنا أصل إلى مطلبي...أنا بينهما مأخوذ عن حقيقة الخبر بتمويه العبارة" (المتردد،2010م،ص44).

واستدعاء تلك الاقتباسات جاء في بواكير كتابة الروايات التاريخية الإسلامية، التي استدعت نصوص القرآن الكريم والحديث الشريف، وكلام السلف الصالح، ومن ذلك رواية "الثائر الأحمر"(باكثير،1984) الذي قسم الروائي روايته إلى أسفار، وربما أخذت منها فكرة تقسيم رواية "موت صغير" إلى أسفار عدة.

و المؤلف لم يصرح أو يحيل إلى تلك النصوص لطبيعة عمله الفني والروائي، وحرص أن تكون لغته قريبة من اللغة المستعملة في كتب وأدبيات القرنين السادس والسابع الهجريين، دون استخدام مفردات أو أساليب تشير إلى ما بعد تلك الفترة الزمنية أو قبلها في متن الرواية، إلا بعض العبارات والأساليب المستخدمة في العصور التالية لعصر ابن عربي في أحداث إطار الرواية، التي حرص المؤلف فيها أن تكون لغتها قريبة من الفترة الزمنية التي وقعت فيها الأحداث، وما يصاحبها من ألفاظ وعادات ومظاهر حضارية، وأن يستعين من الروايات المعاصرة بالأساليب و"التقنيات" الحديثة في رسم الشخصيات وبناء الحدث وغيرها من عناصر الرواية.

ولذا فكاتب الرواية المتعلقة بشخصية تراثية في العصر الحديث لا يستطيع أن يستند في كتاباته على الكتب التراثية وحدها وطرائق الحكايات التقليدية، إذ إن المتلقي المعاصر ألف التجديد في عرض ذلك التراث من خلال تجديد اللغة مع أصالتها، وكذلك من خلال تجديد الأساليب والإستراتيجيات الوظيفية لعناصر الرواية عن طريق الأستفادة من تجارب روائية أخرى معاصرة، أو من خلال وسائل الإعلام المختلفة المتناولة للشخصيات التراثية كالسينما والمسرح التي سعت في تجديد طرق عرض ذلك التراث.

ثالثا: التناص الخارجي:

وهو التناص الذي يتخطى الزمان الحاضر لكتابة الرواية، حيث التناص مع القرآن الكريم والحديث الشريف، وكذلك مع كافة الكتب الأدبية والفكرية خارج عصر المؤلف، من كافة الفنون والآداب، وبرز التناص الخارجي لرواية "موت صغير" من خلال اتجاهين:

الأول تناص مباشر:

وهو التناص من خلال القرآن الكريم ونصوص ابن عربي ونصوص الفلاسفة والمتصوفة وغيرهم، وكان التناص الأغلب في نصوص الرواية من نصيب نصوص ابن عربي لاسيما نصوص ورسائل" ما لا يعول عليه" التي كثيرا ما اقتبست وجعلت عناوين لأجزاء الرواية، لتفسر الجانب العملي والتطبيقي لنصوص ابن عربي، ولتعطي هذه المقولات المزيد من الدلالات من خلال ربطها بالأحداث التي عايشها ابن عربي بنفسه، وطرق تمثلها في واقعه.

والتناص المباشر يظهر في بداية الرواية مع العنوان "موت صغير" وهو تناص مع عبارات ابن عربي "الحب موت صغير"، وقد ابتدأ به الروائي في مقدمة أحد الأسفار، واختار المؤلف هذا العنوان ليمهد للقارئ بأنه مقدم على أحداث يغلب عليها الطابع الإنساني، رغم أن الشخصية الرئيسة غلب عليها الطابع العلمي والعرفاني، فليس تناص هذا العنوان من باب الاستئناس أو جذب القارئ فقط بل كان الغرض من جلبه إبراز الجانب الإنساني في حياة بطل القصة، وكيف يعيش الروحاني الصوفي تجاربه الشخصية، وعلاقاته الإنسانية مع أطياف مختلفة من المجتمع كالأب والأم والأخوات والأبناء والأصدقاء وغيرهم، فالحب اتسع لهؤلاء جميعا، وإن كان حضوره الأشد تجلى في محبوبته نظام، وعبر المؤلف بكلمة "موت" لغايات ابن عربي عن الواقع في مفاصل حياته الواقعية والعرفانية والعاطفية، بحثا عن مدد إلهي يرجعه إلى الواقع منتصرا وعارفا للحقيقة، فهو ليس موت سرمدي ،بل هو "موت صغير" ينتقل إليه العارف كلما أراد الحقيقة "وإذا كانت الرواية تشترك في نمط الكتابة التي تنزع نحو هدم المسافات بين الواقع واللاواقع وإعادة صياغة العالم الواقعي داخل المبنى الروائي المتخيل؛ فإنّ من أول مظاهر هذا الاشتراك هو العنونة النصية للرواية وما تضفيه من أبعاد غرائبية كأن تتجه إلى أسطرة الزمن وإلغاء الحواجز المنطقية بين الماضي والحاضر والمستقبل عبر إنشاء نص روائي يتعالى على الأزمنة في الوقت الذي تختصر فيه الرواية الأزمنة عبر المفارقة والسخرية "(سعدون،2010م،ص 6).

أما بداية الرواية فقد ابتدأت بعبارة ابن عربي "إلهي ما أحببتك وحدي، ولكن أحببتك وحدك" لتخالف أفق توقع القارئ، حين أوحى له العنوان (موت صغير) بأن الرواية ستكون رومانسية الاتجاه، لينتقل إلى حقيقة واقعية تكشف أن لهذه الشخصية جانبا روحانيا تعلق بحب الله، واتخذت طريق التصوف لتصل إلى مبتغاها، ولتندمج مع عنوان الرواية ليكونا مرجعين تفسر من خلالهما الأحداث التي تكشف التوازن بين الجانبين الروحاني والرومانسي لابن عربي، دون أن يكون بينهما تناقض.

واقتبس الروائي كثيرا من العبارات والأبيات الشعرية من كتب ابن عربي ورسائله ووضعها قبل الأجزاء الداخلية لأسفار الرواية، وجعلها مكتوبة قبل سرد الأحداث لتفسر مدلولاتها من خلال ارتباطها بشخصية قائلها، وتجاربه منذ الصغر، فليس كل ما يكتبه ابن عربي وغيره متعلقا بقراءاته وثقافاته بل إن التجارب الشخصية أسهمت في إلهام كاتبها كثيرا من الحكم والدروس، ولذا حرص الروائيون ومنهم محمد حسن علوان، على ربط تلك النصوص بالأحداث والمواقف التي مر بها الكاتب، كتناص مقولة "الناس نفوس الديار" مع مقدمة القسم التاسع في الرواية، التابع للسفر الثاني، الذي يتحدث فيه ابن عربي عن وصف مشاهد دخوله إشبيلية وهو صغير ومدى رغبته في التعرف عليها، وأثر سكان تلك المدينة في تشكيل الانطباع العام عن المدينة، وكذلك مقولة "لولا المطامع لانقطعت الهمم" التي افتتح بها القسم العاشر، من السفر نفسه، والمخصص للحديث عن مطامع الخلفاء، ومطمع أبيه من التقرب إلى الخليفة، وحرص الأب على تعليم ابنه في المساجد، ولذا فهذه العبارات تفسر وتبرر -أيضا- سلوكيات قائلها، من خلال إبراز القيم والدوافع لكثير من التصرفات والسلوكيات التي سار عليها بطل الرواية، إضافة إلى الظروف الاجتماعية والسياسية والنفسية التي أسهمت في تشكيل تلك الشخصية.

وهذا الربط بين الأحداث التي عاشها ابن عربي في طفولته، وما كتبه المؤلف فيه تحليل نفسي لبعض المؤثرات العميقة في شخصية ابن عربي، وتكوينه النفسي الذي يجعلنا نفهم تلك الشخصية وتراثها، ومن ذلك الحديث عن كره ابن عربي للسباحة، وربط الروائي ذلك الحدث بمقولة ابن عربي "كل فن لا يفيد علما لا يعول عليه" وجعلها بداية للقسم الذي تحدث فيه عن

طفولته التي كرهت السباحة، وأوّل ابن عربي ذلك بقوله: كنت أكره السباحة وتزعجني برودة الماء واتّساخه. ما عرف أبي أن السباحة هي العوم في ملكوت الله، والرماية هو قول الحق في موقف الخوف، وركوب الخيل هو السفر في طلب العلم. أخذ أبي الظاهر وكشف الله لي الباطن. فأجبرني على ما لا أحب وأمرني بما لا أطيق"(علوان،2016، ص75).

وقد تناصت مقدمة أجزاء الرواية ببعض الأبيات الشعرية التي قالها ابن عربي، مثل:

-وما عليّ إذا ما قلتُ معتقدي دع الجهول يظنُّ الحقَّ عدوانا (علوان،2016، ص388).

لاسيما أن الروائي حريص كما ذكرت سابقا على إبراز اللغة الشاعرية في رواياته، وإضفاء الجانب الإنساني والشاعري على أحداث الرواية، مع اهتمام بالجانب الجمالي في صياغة الرواية، وحضوره متوازنا مع اللغة الشاعرية في تتابع السرد إضافة إلى الحبكة القصصية المشوقة.

كما بينت بعض الاقتباسات المأخوذة من تراث ابن عربي إظهار حال التناقض بين النص وفعل صاحبه، كما في عبارة ابن عربي "كل ورع مقصور على أمر دون أمر لا يعول عليه"(علوان،2016،ص111) التي وضعها الروائي قبل الجزء الذي يحكي عن حادثة سكر ابن عربي مع صديقه الحريري، في مجالس اللهو مع فيرديك المسيحي وأصدقائه، وهذا ما يوحي بتشنيع ذلك الفعل، وعدم معصومية بطل الرواية رغم مكانته الدينية، وبذلك أراد الروائي أن يزيل جانب العصمة والقدسية لدى بطل الرواية، ويجعله شخصية مثل بقية الناس وقريبة من واقعهم، بخلاف كثير ممن تناول سيرة ابن عربي وأحاطوها بهالة من التقديس والعظمة، مما سبب ذلك نفورا للقارئ العادي الذي لا ينتمي للفكر الصوفي، وبذلك يظل النص مقبولا لدى القارئ المعجب ببطل الرواية وحده، بخلاف تناول علوان لشخصية ابن عربي حيث جعله بشرا مثل بقية البشر يخطئ ويصيب، وتلاحقه الطبائع البشرية أينما حل، مما يقربه للقارئ العادي أيضا.

وكانت هذه الاقتباسات توضع قبل أسفار الرواية لعلاقتها -في الغالب- بالأحداث التالية لها، إلا أن بعض الاقتباسات ليس لها علاقة بتلك الأحداث، كما في اقتباس الروائي عبارة "كل نور لا يزيل ظلمة لا يعول عليه"(علوان،2016، ص129) قبل الجزء المخصص للحديث عن قصة موت عمه، والأحداث المتعلقة ببداية الاستعداد لقتال البرتغاليين إذ لا علاقة مباشرة بين العبارة وتلك الأحداث، وقد يكون هذا الاقتباس مناسبا للجزء السابق المتعلق بحوار ابن عربي وابن رشد حول أهمية الكشف الصوفي في معرفة الحقيقة والمستقبل.

كذلك عبارة "الممكن برزخ بين الوجود والعدم"(علوان،2016، ص249)، لا ترتبط ارتباطا مباشرا بالقسم الذي يتحدث عن اختفاء الخليفة وجعل ولي العهد (ابنه)مكانه، وقد تكون متعلقة بالفصل الذي قبله حين يبحث ابن عربي عن وتده الثاني، ولا يعني ذلك أن عتبات النص الروائي يجب أن تكون لها علاقة مباشرة بالحدث المسرود، فالروائي قد يمهد سرده بعبارة قد تكون ذات دلالات عامة، تشمل وتشير إلى عدة أحداث ومواقف ستسرد، إلا أن الروائي لم يراع ذلك، ولم يوفق في اقتباسات بعض النصوص كما في المثالين السابقين.

وبعض العبارات جاءت شارحة لمعاني الندم والحسرة على أخطاء وقع بها ابن عربي، وربطها المؤلف بمواقف تبين تحسر ابن عربي وندمه على تصرفات لم يتوقع عواقبها، ليجسد بذلك الشخصية المعترفة بالخطأ، والراجعة للحق أنى وجدته، كعبارة "تأمن من كل شيء إذا أمن منك كل شيء" التي استهلها المؤلف للحديث عن ندمه حين ألف كتاب "ترجمان الأشواق"، وليبين الروائي من خلال تلك العبارة أن النفس البشرية مهما بلغت من التقوى لا يؤمن جانبها، وهذه العبارة توضح شدة ندم ابن عربي لاسيما حين قرأ رسالة الشيخ زاهر (والد نظام التي أحبها ابن عربي)، وفيها يعاتبه على تأليف ذلك الكتاب بنبرة متحسرة، قائلا:" اعلم أني سامحتك قبل لومك، وغفرت لك قبل عتابك. ولكن كان لا بد من تبصيرك بأحوالنا من بعدك...فالله أسأل أن يسامحك على فعلك، ويجيرنا في مصيبتنا"(علوان،2016، ص372).

وكما لهذه العبارات المقتبسة من إضاءات ودلالات للنص الروائي كان لها -أيضا- وظيفة جمالية، لما فيها من شاعرية كعبارات رسالة "ما لا يعول عليه"، ولما تضيفه من تنوع وتداخل في الأجناس الأدبية، يبعد الرتابة عن القارئ.

أما التناص مع القرآن الكريم فقد كان حضورا مطردا في الروايات الصوفية بشكل عام، وكذلك في رواية "موت صغير" فقد استند الروائي إلى الآيات القرآنية في تفسير الأمور والتنبؤات الكشفية بحسب رؤية الصوفي وطريقته، فنراه -مثلا-عندما تنبأ ابن عربي بحادثة فتح مرسية يستشهد بآيات من القرآن الكريم، فيقول: "فلا الجو هامد كما كان قبل صيحة ثمود، ولا شديد الرياح كما كان قبل عذاب عاد"(علوان،2016،ص36)، وهذا التأثر والاقتباس من القرآن الكريم شمل عدة روايات تاريخية وصوفية سواء في ثنايا النص أو حتى جعلها عنوانا أو تمهيدا لأجزاء الرواية كما في روايات جمال الغيطاني -مثلا- (الجابري،2011م ،ص114) وغيره، وقد يأتي التناص من خلال وجوده في واقع القصة التاريخية كما موقف ابن عربي مع سورة يس(علوان،2016،ص80) -مثلا- فكان التناص جزءا من الحدث فلم يأت النص للاستشهاد أو التلذذ بل جاءت تلك النصوص بذاتها حاضرة ومشاركة ومتفاعلة مع الحدث، فتصبح الآيات نفسها منفذة للشخصية ومؤثرة في الحدث، ويتفاعل بطل القصة معها تفاعلا مباشرا.

وصور التناص القرآني طبيعة المجتمع المسلم الذي عاش فيه ابن عربي والتزامه بتعاليم الإسلام لاسيما أسرته، ففي موقف أم محيي الدين ابن عربي "نور" مع أبي محيي الدين -مثلا- حين أرادت أن تعرف مصير مرسية أثناء الحصار فطمأنها زوجها بعدم وجود نية لاقتحام الجيش للمدينة، وأراد أن يزيد ذلك التطمين من خلال قراءته لسورة "إذا جاء نصر الله والفتح" حين هم بالصلاة بهدوء وطمأنينة(علوان،2016،ص37)، فمثل هذه الاقتباسات تظهر أن للتناص وظائف عدة تأتي لرسم أجواء المواقف الإنسانية، وإظهار الملامح العامة للشخصية، وردود أفعالها تجاه الأحداث، فأسرة ابن عربي غلب عليها الجانب الشرعي المحافظ، وأراد الروائي أن يبين سمات شخوص روايته، من خلال حضور التناص القرآني، وكذلك إبراز الأجواء النفسية والروحانية المحيطة لتلك الشخصيات، من خلال ما تؤديه تلك النصوص من وظائف كالتطمين والتذكير بمبادئ القرآن، دون حصر تلك الأجواء الإسلامية على المجتمع الصوفي فحسب، بل أراد الروائي أن يظهر صورة المجتمع الإسلامي بصورة عامة.

وهذا التناص الإيجابي لنصوص القرآن الكريم في هذه الرواية يختلف عما يظهر من وظائف التناص

القرآني في بعض الروايات العربية المعاصرة، التي غابت فيها الوظائف الإيجابية والمؤثرة لحضور النص القرآني، مما أوحى ذلك بانعدام فاعلية النص القرآني في حياة الشخصيات الروائية، باعتباره نصا موروثا مترسبا في الذاكرة فقط، وليس مؤثرا في شخصيات المجتمع وواقعهم (لحباري،2009، ص191).

كذلك استدعيت نصوص القرآن والسنة من أجل التماهي بالأنبياء والرجال الصالحين "وذهب تقليدهم إلى حد دمج وامتصاص البطل في الذات الصوفية، أو إلى حد تماهي هذه بالنموذج المختار: المسيح، موسى، ولا سيما النبي محمد" صلى الله عليم وسلم (زيعور،1984م، ص120)

وكذلك اقتبس المؤلف بعضا من الأبيات الشعرية المأخوذة من الموروث الشعبي من أجل إبراز أثر ابن عربي على طبقات متعددة في المجتمع، فلم يكن تأثير ابن عربي محدودا على المتصوفين والمثقفين وطلبة العلم، بل اتسع تأثيره على جماهير كثيرة من الناس، وأصبحت أفكاره ومعتقداته في العصر الحديث تلقى وتنشد بين طبقات عدة في المجتمع، اقتفاء بمنهجه، ومنهج تلامذته من بعده، كما في هذه الأبيات التي وردت في إطار الرواية، على لسان المنشدين في إحدى الحضرات الصوفية:

صفت النظرة. طابَتِ الحضرَة. جاءتِ البشرى -يا عيني- لأهل اللهِ (علوان،2016، ص491).

وكان حضور التناص بالشعر وغيره من دوافع استدعاء المشاعر والأحاسيس، ووسيلة للتفاعل مع الأحداث الجارية، كالأحداث الجالبة للفرح أو الحزن، ومن ذلك أن الحريري: "لما نقض الجيش أخبيتهم ظانّين أن الخليفة أمر بالانسحاب وليس الالتفاف على الحصن، كان الحريري يسأل العازفين أن ينشدوا قصيدة القيراوني "يا ليل الصبّ متى غده"(علوان،2016،ص139)، ليعبر عن فرحته باستبعاد الحرب، وليستدعي مشاعر الفرح والسرور، ومثل هذه النصوص الشعرية توحي بأبعادها النفسية والتاريخية، مضامين ودلات عدة يستطيع الروائي من خلالها نقل تلك الأجواء المحيطة بشخصيات الرواية.

كذلك أسهم استدعاء الكثير من المفردات الصوفية، في نقل صورة مقاربة وواقعية للأحداث التاريخية التي عاشها ابن عربي من خلال التناص بالمفردات والمصطلحات الشائعة في الخطاب الصوفي بصورته العامة في ذلك العصر، وكذلك استدعاء الألفاظ والمعاني الدارجة في حياة الناس اليومية وعاداتهم في الملبس والمأكل والمشرب وغيرها، ومن تلك الألفاظ: "أعدت تثبيت قاووقي" (علوان،2016، ص377)، "خانقاه" (علوان،2016،ص384)، "قفة التمر" (علوان،2016،ص389)،وغيرها.

وكذلك استدعى الروائي عدة نصوص روحانية من ديانات وعقائد أخرى(1) كالديانة اليونانية القديمة على لسان فريدريك أحد أصدقاء ابن عربي الذين اصطنعهم الروائي دون سند تاريخي لها، وقد يطول حجم هذه الاقتباسات لتصل في صفحة واحدة ثمانية أسطر (علوان، 2016، ص138) ، وكذلك استدعى الروائي بعضا من نصوص الفيلسوف الهندي شانكارا، وذلك عندما حاصر الجيش شنترين، فقد كان ابن عربي ورفيقه الحريري يجالسون إحدى صديقات فيرديك " وهي تقرأ لنا استغفار شانكارا ربه: "اغفر لي يا ربي ذنوبي الثلاث: مشيت إليك ونسيت أنك في كل مكان، وفكّرت فيك ونسيت أنك أعمق من الأفكار، وصلّيت لك ونسيت أنك أسمى من الصلوات"(علوان، 2016، ص139).

ورغم أن الفيلسوف شانكارا ولد في الحقيقة بعد وفاة ابن عربي(عويضة،1995،ص205)، إلا أن الروائي حرص على أن يستشهد بكلامه، ليبين مدى تسامح ابن عربي مع الديانات الأخرى، ونصوص شانكارا تم استدعاؤها في حالة السكر التي غشيت ابن عربي قبل توبته، في الرواية المتخيلة في كثير من حوادثها، كما أردفت هذه النصوص الروحانية والفلسفية بنصوص إسلامية على لسان الحريري رفيق ابن عربي، لتصور حال التناقض الذي عاشه ابن عربي ورفيقه قبل توبتهما، من خلال شرب الخمر والرقص مع النساء، واستدعاء هذه النصوص يوحي بالإحباط الكبير الذي عاشه المتصوف، لا سيما أن الظروف السياسية والاجتماعية أسهمت في تكريس ذلك الضياع، وحين انتبه من غفلته تلك، انتقل ابن عربي بعدها إلى المقبرة نادما على ما كان منه، وبقي منعزلا، ومنتظرا لكشف الله ولرؤية علامة إلهية تصرفه عن طريق الغواية، وترشده إلى الطريق، وليبدأ بعدها رحلته في البحث عن أوتاده التي تثبت قلبه.

ولا يعني أن التناص مع التراث العالمي كفيل بأن يجعل الرواية ذات أثر عالمي إذ إن كثيرا من النصوص الروائية العربية لم تحقق ذلك رغم استدعائها لنصوص من ثقافات أخرى، بسب التكلف في استحضارها، و"لاكتفائها بالمعلومات المستهلكة والشعارات المكررة من مذاهب مختلفة كالاشتراكية الغربية "(لحباري،2009، ص191) -مثلا- دون أن تكون نابعة من واقع الشخصيات ومواقفهم الحياتية وتجاربهم الوجودية.

الثاني: تناص غير مباشر:

وهو التناص من خلال الأساليب "الثيمات" والطرائق الصوفية، التي اعتمدها أصحاب المنهج العرفاني وغيرهم في الوصول إلى الحقائق، كالكشف والكرامة والرؤيا وغيرها، وكذلك طرقهم الخاصة في التأليف والإنشاء بصوره المختلفة من عبارات وحكم وغناء وغيرها، التي استعان بها محمد حسن علوان في روايته.

وحرص المؤلف أن تكون هذه الإستراتيجيات "الثيمات" متعددة رغبة منه في شد القارئ وإمتاعه، كما أضاف الروائي إلى تلك الأساليب ترابط الحبكة القصصية، وقوة ارتباطها بالعقدة الرئيسة في الرواية، وقوة تعاقب الأحداث المبنية على الدهشة والغرائبية، ولذا اتسعت مساحة السرد في الرواية لتصل إلى ست مئة صفحة تقريبا.

ولعل أبرز طريقة "استراتيجية" اعتمدها محمد حسن علوان في تشكيل شخصية بطله الرئيس، وتسيير أحداث الرواية، هي استراتيجية "البحث عن الذات" أو البحث عن "الأسطورة الشخصية" التي اعتمدها الصوفيون في بحثهم عن "الحب الإلهي" و"تطهير النفس" وهذه "الثيمة" حاضرة -أيضا- في التراث العالمي وليست وليدة التجربة الصوفية فحسب، ومن ذلك ما نراه -مثلا- في شخصية "سانتياغو" الشخصية الرئيسة في رواية "الخيميائي" المشهورة حيث

---

(1) الخانقاه: مكان تعبد المتصوف بالفارسية.

الأسطورة الشخصية مطلب كل إنسان وإنجازها هو "الواجب المفروض على البشر، ليس الكل سوى شيء واحد"(العلوي،2012،ص17) وهذه الأسطورة الشخصية لا تأتي من خلال الانعزال والوحدة، فقد تعرف سانتياغو بالخيميائي (المقابل للوتد عند ابن عربي) الذي أصبح دليله في الصحراء والذي تعلم منه الكثير من أسرارها ولغاتها ويلخص له سر السعادة الحقيقية بعد ذلك بقوله: "حيث يكون كنزك فثمة قلبك..وما من قلب يعاني الألم هو أكثر سوءا من الألم ذاته؛ لأن كل لحظة سعي هي لحظة لقاء مع الله ومع الأبدية"(العلوي،2012،ص18).

وفي رواية "موت صغير" بدأ ابن عربي البحث عن أسطورته الشخصية من خلال ابتعاده عن طريق أبيه، الذي أصر أن يعمل معه كاتبا في دواوين الملوك، واتخاذ طريق خاص به بدلا عن ذلك، حيث "البحث عن الأوتاد" واتخاذ وصية القابلة- فاطمة بنت المثنى-الدليل إلى ذلك، حيث أوصته بقولها: "طهر قلبك ثم اتبعه"، إلى غير ذلك من العلامات والإرشادات كالرؤى والإلهامات التي ترشد المريد إلى "الأسطورة الشخصية" التي تمثلها ابن عربي في بحثه عن الأوتاد، وهو الطريق إلى الله في اعتقاد الصوفي.

كما نجد أن الوصول إلى الغايات التي يسعى إليها سانتياغو في سعيه الروحاني تتم من خلال تتبع قواعد وحكم لفظية يقدمها العارف الحكيم، ومن ثم يستحضرها المريد عند اتخاذ أحكامه وقراراته المصيرية، كما في مقولة الخيميائي مخاطبا سانتياغو :"إن كل نعمة لا تقبل، تتحول إلى لعنة"(العلوي،2012،ص18)، وهذا الإذعان التام لتلك الإرشادات شبيه بالحكم الواردة في نصوص "موت صغير" حيث سطر الروائي الكثير من حكم "ابن عربي" ليستنير بها في رحلته الممتدة طوال حياته، وغالبا ما نجد التشابه في مضمون هذه الحكم وشكلها الخارجي بين الروايتين، حيث امتازت تلك الحكم بالتكثيف والإيحاء والرمز، وهذه المنهجية الروحانية في تمثل تلك الحكم وتأويلها عامل مشترك بين العالمين الصوفي كما في سيرة ابن عربي في الرواية، والروحاني كما في سيرة سانتياغو في رواية الخيميائي.

كذلك نجد التأثر بلغة الإشارات والعلامات التي تعين الشخصية الروحانية في توجيه حياتها، حاضرا في رواية "موت صغير" فخادم ابن عربي يخاطبه قائلا: "فإن كانت إشارتك الإلهية أخذتك غربا فلنذهب غربا"(علوان،2016، ص446)، ويقول في موضع آخر: "الإشارات لا تحدث عبثا والكشوفات لا تنزل سدى"(علوان،2016، ص452). وكانت رحلات ابن عربي في رواية "موت صغير" وفق علامات ومشاهدات يراها ليبحث من خلالها عن أوتاده، كما في رحلات سانتياغو في رواية "الخيميائي، الذي انتقل في مدن عدة: الأندلس، طنجة،... وفق لغة الإشارات -أيضا- "فكلما لمح إشارة ما جعلته أكثر تشبثا بالاستمرار في رحلة البحث عن الكنز، وكلما توقفت لغة الإشارات توقف معها الأمل: إن كل شيء في الحياة إشارة، والكون مخلوق بلغة يفهمها جميع البشر، ولكن البشر نسوها" (العلوي،2012، ص18).

وفكرة "البحث عن الذات" صاغها محمد حسن علوان بطريقة صوفية مغايرة لكثير من الروايات الصوفية المعاصرة، حيث ارتكز المؤلف على فكرة "البحث عن الأوتاد" التي تثبت قلب المريد، ويقابلها فكرة "الأسطورة الشخصية" عند الفلسفة الغربية المعاصرة، بخلاف الروايات الصوفية المعاصرة، حيث ارتكزت شخصية بطل الرواية على ملامح أسطورية تنتقل فيها الشخصية من الإنسان العادي إلى الإنسان الخارق كما في رواية الوليّ الطّاهر يرفع يديه بالدّعاء"للطاهر وطار -مثلا- فنرى أن البطل الصوفي "يسمو من الإنسان العادي، إلى مرتبة الولي الذي يحظى برؤية في الوجود، تعززها دلالات المكان/المقام" (رحال،2015،ص295)، أما في رواية موت صغير فقد ارتكزت الأسطورة الشخصية على فكرة "البحث عن الأوتاد" ومن خلالها ينتقل بطل الرواية من مرحلة الإنسان العادي إلى مرحلة الإنسان الساعي إلى الكمال، عن طريق التصوف والمجاهدة والعلم، ومن خلال البحث عن إرشادات روحية متعددة، بصورة مقاربة لواقع شخصية ابن عربي التاريخية، وبطريقة مألوفة في التراث العربي والعالمي.

كذلك اعتمد محمد علوان على "تقنيات" وأساليب صوفية خاصة درج عليها الصوفيون في أدبياتهم وتراثهم، من خلالها يصل البطل إلى مراتب صوفية عليا تؤهله لأن يعرف الحقيقة، ويختار السلوك الصحيح، ومنها لغة الكشف إذ إن" التصوف يعتمد بشكل أساسي على علم الكشف، وهو علم ذوقي لدني لا يدخل دائما تحت مظلة العقل والمنطق والبراهين"(حاج يوسف،2016، ص22)، وعن طريق الكشف استطاع ابن عربي في رواية "موت صغير" أن يطلع على بعض الأمور الغيبية منها قوله: "أعطاني الله برزخين: برزخ قبل ولادتي وآخر بعد مماتي. في الأول رأيت أمي وهي تلدني وفي الثاني رأيت ابني وهو يدفنني...رأيت كل هذا بكشف الله"(علوان،2016، ص13)، ومثل هذه الرؤى والتوقعات والإلهامات لم تتخط واقع المحسوسات في رواية "موت صغير" وبقي الجانب الروحاني والعرفاني الملمح الأساس في تفرد ابن عربي عن الإنسان العادي، دون أن يمتاز بخوارق جسمانية أو أسطورية تبعد الرواية عن مسارها الواقعي والحقيقي، كما في بعض القصص والأخبار التي أحيطت بالشخصيات الصوفية وغيرهم.

ومن الأساليب الصوفية التي تناصت مع رواية "موت صغير" الاستناد على الرؤى والأحلام التي يراها المريد في منامه، وجعلها كالكشف الإلهي، في توجيه المريد في فعل أمر أو الكف عنه، أو تفسير قضايا حالية أو مستقبلية، ينبني عليها تغيير مسار حياة بطل الرواية كترك مكانه، أو طلب استشارة من أحد بعينه، وجعل تلك الرؤى وسيلة بعد ذلك في توجيه مسارات القصة والأحداث، مما سهل على الروائي تغيير الأحداث الروائية، وتنميط السرد بطريقة تجمع بين الحقيقة والخيال، دون اللجوء إلى قواعد المنطق أو تغيير الوقائع التاريخية التي تضعف سير أحداث الرواية، ومن ذلك موقف ابن عربي قبل زواجه بمريم، إذ يقول:" وفي منامي رأيت مريم تقرأ في كتاب....تكرر ذلك المنام ليالي حتى عرفت أني لن أحسم أمري بنفسي ولا بد لي من مشورة...فذهبت إلى فاطمة بنت المثنى، وسألتها:

-أو تعرفينها يا أماه؟

-لا يا بني، لكني أعرف أنها ستكون زوجتك" (علوان، 2016، ص163).

ومن التقنيات التي تناصت فيها رواية "موت صغير" مع التراث الصوفي، التأويل الباطني للحقائق، وتفسير كثير من المواقف وفق التصور العرفاني للوجود، وصرف النظر عن ظاهر العبارات، والتمعن في باطنها ويظهر ذلك حوارات ابن عربي مع أتباعه وكذلك خصومه، ومن ذلك مناظرته مع القاضي حين اتهم بالزندقة (علوان،2016، ص398).

واستعان الروائي بالكرامة التي يمنحها الله لأوليائه الصالحين، لبيان عظمة شخصية بطل الرواية، لا سيما أن الكرامة ذاع ذكرها في الخطاب الصوفي عبر تاريخه الطويل، ولم يكتف الروائي بجعلها محصورة في شخص ابن عربي، بل إنه أشار إلى إحدى كرامات عمه بعدما تاب، حيث كان يوقظ من حوله عند طلوع الفجر، وعندما يسئل عن ذلك، يجيبهم بأنه يشم الفجر، ويقول: "إن لأنفاس الفجر رائحة"(علوان،2016، ص87).

وكما اتسمت اللغة الصوفية عبر عصورها المختلفة بقربها من اللغة الشعرية، اتسمت-أيضا- بقربها من لغة الإبهام والغموض لتصف هيام الصوفية بإشراقات الأقطاب والأوتاد وغيرهم، ولتعبر عما تجيش به أنفسهم من خواطر تصف حبهم لله، والشوق له، عبر مجاهدات وخلوات تسهم في إذكاء المشاعر المحصورة بمعاني وأفكار منغلقة حول التصوف، ومن ذلك ما جاء على لسان ابن عربي وهو يصف حاله وحال مريديه "طلعت علينا شمس غير شمس العالمين، وأضاء لياليا بدر مكتمل لا ينقص طيلة الشهر. إذا كشف أي منا سرا قدسيا شق السماء فوقنا شهاب ساطع. وإذا تحدث أحدنا باللطائف العلوية نزلت معنا نجمة أو نجمتان"(علوان، 2016، ص174)، وهذا الغموض المقترن بكثير من الرموز الخاصة بأصحاب الطرق الصوفية يظهر في كل كتابات الصوفية، وفي كل أحوالهم المعيشية، "ومن دوافع ذلك الإغراب الخطابي ما يلي: -دافع موضوعي علمي: وهو عجز اللغة التقليدية عن الوفاء بما يكفي للدلالة على لطائف المعاني الصوفية.

-دافع ذاتي: وهو تعمد الصوفية الازورار عن مألوف الأساليب والمفاهيم اللغوية، لأجل الحفاظ على إشاراتهم ومعانيهم أن تصاب بتشويه فهمي، أو إنكار مؤذ من طرف العوام"(خوالدية،103،2014ص).

وحضور الغموض في رواية "موت صغير" -رغم قلته- يأتي كاشفا وداعما لسيرورة الحدث الروائي، فابن عربي يبحث عن وتده من خلال طلب العلم العرفاني، ومن خلال ملازمة العلماء والأقطاب، وحوارهم من أجل الوصول إلى الأوتاد الأربعة، وهذه الحوارات امتازت بالغموض لدى العامة، إلا أنها كانت تدور بين الوتد وابن عربي بسهولة ويسر، ومن ذلك حوار محي الدين بن عربي مع الولي الكومي في المقبرة (علوان،2016، ص179).

الخاتمة:

-استطاع محمد حسن علوان أن يحيي ثراث ابن عربي من خلال كشفه للجوانب الإنسانية والعاطفية لشخصية اهتم دارسوها في الغالب بجوانبها العلمية والعرفانية، وحرص أن يختار من الحقائق التاريخية ما يهم في كشف تلك النواحي، ويطلق العنان -أيضا- لمخيلته في بناء الرواية وأحداثها، وفق ما يسمح به في العادة للروائي دون المؤرخ.

-حرص الروائي على تجاوز المألوف في تناول الشخصيات التاريخية، من خلال اعتماده على طريقة الميتاسرد حيث أنشأ خطابا موازيا لأحداث الرواية الرئيسة تشويقا واستمالة للقارئ، وهادفا لدلالات عدة من خلال إيحاءات ذلك الخطاب الميتاسردي، وتناصه بالقصة الرئيسة.

-في كلا الخطابين الرئيسي "متن الرواية" والثانوي "قصة المخطوط "حضر التناص بأقسامه الثلاث، ليبين السمات القارة لذات الكاتب الروائية وغاياتها عبر الروايات السابقة لرواية "موت صغير"، ويتناص معها، حيث تهدف روايات الكاتب في مجملها إلى كشف المشاعر والأحاسيس الداخلية لشخصيات المجتمع، وجعلها تبوح بما في داخلها من خلال الاستعانة بضمير المتكلم، الذي يعد الأنسب في التعبير عن الذات، لاسيما أن الروائي كان يمزج تلك التعابير بأسلوب شاعري يستنطق أحاديث القلب.

- استعان محمد حسن علوان بالكتابات التاريخية والفكرية التي تناولت تراث ابن عربي، ليأخذ منها الأفكار العامة التي كان يسعى إليها ابن عربي في حياته، ونقل الروائي تلك الأحداث والنصوص إلى لغة الفن والرواية، بأسلوب شاعري وسردي يقوم على كشف الجانب الإنساني للشخصية الصوفية العالمة، من خلال الاستعانة ببعض التقنيات والأساليب الواردة في كتابات فنية تناولت شخصيات تاريخية وصوفية أخرى في العالم العربي.

-استطاع محمد حسن علوان من خلال التناص بنصوص القرآن الكريم، والحديث الشريف، وكتابات ابن عربي، وغيره من المتصوفة أن يضفي لروايته طابعا مقاربا لأجواء المرحلة الزمنية التي عاش فيها ابن عربي، وقد غلبت نصوص ابن عربي على غيرها، ليبين المؤلف تعامل ابن عربي مع ما يكتبه، وآلية تطبيق نظرياته على أرض الواقع.

-استطاع المؤلف أن ينقل الأساليب والتقنيات التي استعان بها الصوفيون في طريقهم العرفاني مثل: الكشف والرؤى وتفسير الأحلام وفهم العلامات الإلهية وغيرها، بصورة مبسطة أسهمت في تشكيل أحداث الرواية وعناصرها الرئيسة.

المصادر والمراجع:

أحمد، أمل عبد اللطيف: *التناص في رواية إلياس خوري باب الشمس*، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين،2005م.

باكثير، علي أحمد: *الثائر الأحمر*، دار الكتاب اللبناني-بيروت ،1984م.

برنس، جيرالد: *قاموس السرديات*، ترجمة: السيد إمام، ط1، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، 2003م .

بلاثيوس، أسين. *ابن عربي حياته ومذهبه*، د.ط. ترجمة: عبد الرحمن بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، بالقاهرة، 1965م

بنعرفة، عبد الإله: *جبل قاف*، ط1، مطبعة عكراش بالرباط، 2002م.

جميل، نهى بنت محمد: *تقنيات حداثية في الرواية الأردنية (1990-2005)*، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الهاشمية، الأردن، 2008م.

حاج يوسف، محمد علي: *شمس المغرب سيرة الشيخ الأكبر محيي الدين ابن العربي ومذهبه*، ط1، دار فصلت حلب، سوريا. 2006م.

الحفني، عبد المنعم. *الموسوعة الصوفية*، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الخامسة، 2006م.

حمداوي، جميل: *الميتاسرد في القصة القصيرة بالمغرب*، ط1، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف،2018م.

خوالدية، أسماء: *الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة والإغراب قصدا*، ط1، منشورات ضفاف، لبنان،2014م.

الزهراني، سميرة بنت ضيف الله: *شعرية اللغة الروائية (محمد حسن علوان أنموذجا)*، مؤسسة الانتشار العربي بيروت-لبنان، ط1، 2008م.
زيادة، حمور: *شوق الدرويش*، ط1، دار العين بالقاهرة، 2014م.
زيتوني، لطيف: *معجم مصطلحات نقد الرواية*، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 2002م.
زيعور،علي: *الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم القطاع اللاواعي في الذات العربية*،ط2،دار الأندلس، بيروت،1984م.
شيهو، رابي. *رواية السيرة الغيرية بين الواقع والمتخيل رواية جبل قاف لعبد الإله بنعرفة نموذجا*، رسالة ماجستير "غير منشورة"، جامعة آل البيت بالأردن،2012م.
عبد الرؤوف، علي: *غازي القصيبي روائيا أطروحات إبداعية نقدية في عمارة الإنسان وعمران المكان*، ط1، سلسلة كتاب أطياف، وزارة الثقافة، مملكة البحرين،2014م.
عبد الواحد، رحال: *التجريب في النص الروائي الجزائري*، رسالة دكتوراه "غير منشورة، جامعة العربي بن مهيدي، الجزائر، 2015م.
عداس، كلود: *ابن عربي سيرته وفكره*، ترجمة: أحمد الصادقي، ط1، بيروت، دار المدار الإسلامي، 2014م.
علوان، محمد حسن: *رواية صوفيا*، دار الساقي، لبنان، ط2، 2006م.
علوان، محمد حسن: *موت صغير*، دار الساقي، لبنان، ط2، 2016م.
عويضة، كامل محمد: *الأعلام من الفلسفة، الفلسفة والمدارس المحدثة*، جزء 39 / سلسلة أعلام الفلاسفة. مراجعة محمد رجب البيومي، دار الكتب العلمية بلبنان، الطبعة الأولى،1995م.
القاضي، محمد: *الرواية والتاريخ دراسات في تخييل المرجعي*، ط1، دار المعرفة للنشر – تونس،2008م.
القاضي، محمد: *معجم السرديات*، دار محمد علي للنشر تونس، الطبعة الأولى 2010م.
الكاشاني، عبد الرزاق: *معجم اصطلاحات الصوفية*، تحقيق: عبدالعال شاهين، دار المنار، القاهرة، ط1، 1992م.
كريستيفا،جوليا: *علم النص*،ت: فريد الزاهي، دار توبقال،المغرب،ط2، 1997م.
لحباري، رقية: التناص في روايات الطاهر وطار. رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة العقيد الحاج بالجزائر، 2009م.
المثرد، نعيم: *استراتيجية التناص في رواية سرادق الحلم والفجيعة لعز الدين جلاوجي*،2010رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة قاصدي مرباح-ورقلة/الجزائر،2011م
مرتاض، عبد الملك: *نظرية النص الأدبي*، ط2، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر،2010م.
هميسي، عبد الرشيد: *حضور التصوف في الخطاب الروائي العربي المعاصر-بعض الروايات العربية أنموذجا* -رسالة دكتوراه-جامعة الحاج لخضر، الجزائر،2017-2018م.
يقطين، سعيد: *انفتاح النص الروائي (النص والسياق)*، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الثانية، 2001م.
يقطين، سعيد: *الرواية والتراث السردي*، ط1، المركز الثقافي العربي بالمغرب،1992م.

الدوريات:

بوزيدي، نعيمة: تداخل الأجناس الأدبية في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي، *حوليات جامعة الجزائر*، الجزء 2، (العدد31) (2017م).
الجابري، متقدم. جماليات التعالق النصي في رواية الزيني بركات جمال الغيطاني، *مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر-بسكرة*- العدد (الثامن)،جانفي،(2011م).
سعدون، نادية هناوي: سيميائية العنوان في السرد الروائي الثيمة والبنية، *مجلة كلية اللغات*، جامعة بغداد، العدد (21)، (2010م).
الشويلي، داود سلمان. بنية الرواية وأشكالها المتعددة، *صحيفة بانوراما، بغداد*، نشر بتاريخ(: 07 آذار/مارس،2017م).
صالح، هويدا: الخطاب الميتاسردي في "طوق الطهارة". *مجلة الجوبة* العدد (57) -(خريف 1339هـ-2017م،) 18-46
العلوي، مولاي حفيظ: تناص الحكي في رواية "السيميائي" أو باولو كويلو سارق "حلم العرب"، *جامعة محمد الخامس، أكدال-الرباط*، (2012م).9-30
الغيطاني، جمال: لقاء حواري معه بتاريخ الثلاثاء، -*جريدة أخبار اليوم*-16 سبتمبر 2014م.
فايع، علي: باحثان يتهمان "علوان" بالتناص مع "عداس" في"موت صغير"، *جريدة عكاظ*، (الثلاثاء 9مايو 2017م).
مستار، أمينة: بنية الصوفي في كتاب رواية التجليات لجمال الغيطاني، *مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم*، العدد (12)، (2012م).171-189
ناصري، عيسى: لعبة الميتاسرد في رواية «النهر يعضّ على ذيله» لإسماعيل غزالي، *صحيفة الاتحاد الاشتراكي المغربية*، 2017/5/26م.